مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 10 / العدد: 2 (2022)، ص: 197- 208

إشكالية المعرفة، جون لوك ودوره في طرح سؤال ابستيمولوجي جديد

مناقشات في " التطور الابستيمولوجي لنظرية العقل"

Le problème de la connaissance, John Locke et son rôle dans la pose d'une nouvelle question épistémologique

Le développement épistémologique de la théorie de l'esprit.

د. فيصل زيات [1]

[1] جامعة العربي التبسي/ تبسة (الجزائر)، fayssal.ziat@univ-tebessa.dz

تاريخ الاستلام: 2022/02/18 تاريخ القبول: 2022/04/04 تاريخ النشر: 2022/05/10

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل مشكلة المعرفة التي كانت مثار بحث وجدل المفكرين في عصر جون لوك في نهاية القرن السابع عشر، وهو العصر الذي نهضت فيه العلوم، وزاد الاهتمام بالمعرفة التجريبية، ولهذا انصب اهتمامه على العقل البشري باعتباره أداة لاكتساب المعرفة؛ هذا ما دعاه إلى طرح سؤال ابستيمولوجي جديد وهو أن نتفحص قوانا الخاصة الموجودة في العقل البشري، من أجل الكشف بطريقة منهجية عن أصول المعرفة الإنسانية ويقينها وحدودها.

وتوصلت الدراسة الى أن لوك أسهم بنصيب وافر في إثراء وتنمية نظرية المعرفة في جانبها التجريبي الحديث؛ فنجده يطالب برفض المبادئ والأفكار الفطرية، ويدعو الناس إلى تأمل فكرها وتعميقه، وقد دفعه ذلك إلى القول أنه لا انفصال بين المعرفة والفكر، والحق أننا لا نصادف المعرفة إلا كفكر. والفكر فعل للعقل، الذي لا يحتوي على غير الأفكار؛ وكل ما لدينا من أفكار مصدرها التجربة.

كلمات مفتاحية: المعرفة؛ السؤال الابستيمولوجي؛ العقل البشري؛ أصل المعرفة؛ الأفكار الفطرية.

Abstract:

This study aims to analyze the problem of knowledge that was the subject of research and controversy among thinkers in the era of John Locke at the end of the seventeenth century, the era in which sciences rose, and interest in empirical knowledge increased. Therefore, he focused his attention on the human mind as a tool for acquiring knowledge. This is what prompted him to pose a new epistemological question, which is to examine our own powers that exist in the human mind, in order to systematically reveal the origins, certainty, and limits of human knowledge.

The study concluded that Locke contributed a great deal to enriching and developing the theory of knowledge in its modern empirical aspect. We find him demanding the rejection of innate principles and ideas, and he invites people to contemplate and deepen their thought, and this prompted him to say that there is no separation between knowledge and thought, and the truth is that we do not encounter knowledge except as thought. Thought is a verb of the mind, which contains nothing but thoughts; all our ideas come from experience.

Keywords: knowledge; Epistemological question; Human mind; Origin of knowledge; Innate ideas.

المؤلف المرسل: فيصل زيات

1. مقدمة :

إن أول ما اتسم به القرن الثامن عشر في بدايته هو الانحطاط السريع ثم السقوط الدامس للمذاهب الكبرى التي جاهدت، بوحي ديكارت للجمع بين فلسفة الطبيعة وفلسفة الذهن. ومعلما القرن الثامن عشر هما نيوتن ولوك: نيوتن الذي ما كان القسم الجوهري من فكره، أي الفلسفة الطبيعية أو الفيزيقية، يمت إلا بصلة واهية إلى نظرياته في الموجودات الروحية التي كان يميل إلى الايمان بها بسائق التصوف الشخصي أكثر مما كان يعمل إلى اتخاذها موضوعا لتأملات منهجية ذات ارتباط لا تنفصم عراه بعمله الطبيعي وهذا ليس موضوع بحثنا؛ ولوك وهو ما يهمنا هنا الذي وضع فلسفة في الذهن لا يربطهما رابط جوهري بالتطور المعاصر للعلوم الرياضية والطبيعية لدى بويل أو لدى نيوتن. (برهييه، 1993، الصفحات 06-05)

حدث إبان فترة العلم الطبيعي لعصر النهضة، تقدم ملحوظ في تطور مناهج البحث، العقلية والتجريبية، وقد نشأ في نهاية القرن السابع عشر رد فعل ضد بناء المذهب. وقد بدا أنه من الأفضل دراسة ما هو في المتناول بصورة دقيقة أي الإنسان نفسه، "فالدراسة المناسبة للبشرية هي الإنسان". (رايت، 2010، صفحة 153)

ولقد أدرك الناس الآن أنه ولا حتى ديكارت، بإشارته المختصرة إلى الشك العام، فقد نفذ بصورة كافية إلى مشكلة "حدود المعرفة البشرية ومداها قوى الفهم"، أعني إلى ما نسميه الآن "الابستيمولوجيا". وقد أصبح ذلك، بالتالي، هو الاهتمام الرئيسي لعصر التنوير، تلك الفترة التي يؤرخ لها عادة منذ ظهور "مقال في الفهم البشري" للوك (1632-1704)، عام 1690، وتنتهي بنشر كتاب كانط "نقد العقل الخالص" عام 1781. ومع أن كل مفكري هذه الفترة العظام قد تأثروا إلى حد ما بديكارت وفلاسفة عصر النهضة العقليين الآخرين، فإن اتجاههم السائد هو المذهب التجريبي. فالمصدر الأصلي لمعلوماتنا عن العالم الخارجي هو الإحساس، على الرغم من أن معطيات الحس يمكن أن تحلل، وتفسر وتنتقد، عن طريق العقل. إن المهمة الأولى للفيلسوف هو أن يعد قائمة للمعرفة التي نحصل عليها مباشرة عم طريق الحواس، وترتبط فلسفة هذه الفترة ارتباطا وثيقا بالسيكولوجيا والفيسيولوجيا. (رايت، 2010، صفحة 154)

تتصدر نظرية المعرفة فلسفة لوك التي عالجها في كتابه "محاولة في الفهم الإنساني". على نظرية المعرفة أن توضح أصل وأسس المعرفة الإنسانية وأن تكتشف حدود قدرات المعرفة في العقل. (فيدمان، 2003، صفحة 121)

وقد أسهم لوك من خلال كتابه "مقال في العقل البشري" " An essay concering human understanding" بنصيب وافر في إثراء نظرية المعرفة في جانبها التجريبي EXPERIMENTAL فعلى الرغم من أنه أغفل خصوبة المنهج الرياضي الذي احتذاه ديكارت، واسبينوزا، وليبنتز (الفلاسفة العقليين) إلا أنه قد أسهم من جانب آخر في تنمية نظرية المعرفة في صورتها الحديثة فنجده يطالب برفض المبادئ والأفكار الفطرية، ويدعو الناس إلى تأمل فكرها وتعميقه، وقد دفعته هذه الفلسفة إلى الاهتمام باللغة فأخذ يحللها ويحاول تفسير ألفاظها ومعانيها. (عباس، 1996، صفحة 21)

إشكالية الدراسة:

ومما سبق يمكن طرح الإشكالية التالية التي تأتي هذه الورقة البحثية للإجابة عليه على النحو الآتي:

ماهو أصل المعرفة الإنسانية عند لوك؟ وما هي حدودها؟ وما هو موقفه لوك من الأفكار الفطرية؟ وما هي الطريق التي يتخذها منهجا له؟ وما هو السؤال الابستيمولوجي الجديد الذي طرحه لوك؟ وما الذي يبره؟ وإلى ماذا كان يهدف به؟

هدف الدراسة:

تهدف هذه الورقة البحثية لمحاولة الإجابة عن إشكالية معرفية لا يزال صداها مترددا في الفكر الفلسفي الابستيمولوجي إلى يومنا هذا، متطور على إثر مناقشات لوك مع بعض أصدقائه لم يوفقوا فيها إلى حل المسائل التي أثاروها، ففطن إلى أنه يمتنع إقامة "مبادئ المعرفة إلا بعد الفحص عن كفايتنا والنظر في أي الأمور هي في متناولنا وأيها يفوق إدراكنا"، وهكذا نبتت عنده فكرة البحث في أصل المعرفة وحدودها فوضع لفوره رسالة "في العقل الإنساني" يرجع فيها معانينا جميعا إلى معان بسيطة مستفادة من التجربة.

كما تهدف هذه الورقة أيضا إلى تبيان أهمية الدعوة إلى أن نتفحص قوانا الخاصة الموجودة في العقل البشري من أجل اكتساب المعرفة، ودور هذا الفحص في التحليل الإبستمولوجي لتهيئة السبيل لاكتشاف المعرفة.

أهمية الدراسة:

تستمد هذه الدراسة أهميتها من موضوعها الذي يعالج نظرية المعرفة بأولوية السؤال الابستيمولوجي، ومناقشة التطور الابستيمولوجي لنظرية العقل، لذلك كان شعاره دائما أن ثمة ميلا أصيلا نتمثله في الطبيعة البشرية: وهو أن الإنسان يروم من المعرفة حياة خيرة سليمة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتحديد ضوابط الفهم الإنساني. فبناء الحياة كله لا يستقيم إلا بإرساء أسس المعرفة. مبررا ذلك بأن مشكلات الفلسفة هي نمط من المعرفة، فقبل أن نبدأ في البحث في المعرفة الإنسانية يجب أولا البحث في أداة هذه المعرفة وهي الفهم البشري.

منهج الدراسة:

من خلال الإشكالية المطروحة وبالنظر إلى موضوع الدراسة فإننا نعتمد المنهج التحليلي، والذي سنعمل من خلاله على القيام بدراسة تحليلية لتصور جون لوك حول نظرية المعرفة. المتأسسة على تمركز أولوية السؤال الابستيمولوجي، ودراسة العقل البشري وطاقاته وحدوده.

2. نسق جون لوك الفلسفي

يقول فولتير Voltaire " إن هناك كثيرين تحدثوا وكثبوا قصصا رومانسية عن الروح، ولكن لوك وحده – هرفل الميتافيزيقا- هو الذي كتب تاريخها"

وقد شرع لوك في الكتابة في الموضوعات الفلسفية عندما اطلع على أفكار فلاسفة عصره ولا سيما فلسفة الأفكار الواضحة عند رينييه ديكارت، وكان اهتمامه الشخصي، وقراءته الفردية هما المصدر الوحيد لتنمية أفكاره فوجد في الفلسفة الديكارتية وجلاءها ثورة على الفكر في عصره الذي تشبع بروح الفلسفة الأرسطية التي سادت العصر الوسيط. ووجد مشكلته هي إقامة فلسفة تقر المعتقدات النصرانية على أساس ميتافيزيقي، بينما كانت مشكلة لوك هي "نظرية المعرفة". فإذا كانت المعرفة بوجه عام "هي جملة ما يوجد في ذهن الإنسان من أفكار، وهي تقوم على أساس الواقع الخارجي وليس من الضروري أن تقوم على أساس هذا الواقع، لذلك تعد اللغة شيئا ضروريا بالنسبة لاستكمال تحليلنا للمعرفة". (عباس، 1996، صفحة 20)

ولكن مشكلة لوك التي ناقشها في نظرية المعرفة هي هل يكتسب الانسان معرفته بالحواس فقط أم بأفكار عقلية مجردة فقط أم بمزيج منها؟ وهل يستطيع الانسان أن يعرف كل شيء – كما أدعى ذلك أرسطو مثلا – أم أن للإنسان قدرات محدودة يستطيع أن يعرف بعض الأشياء ولكنه عاجز عن معرفة الأشياء الأخرى؟ هل المعرفة الحسية خادعة، لا يوثق بها أم انها الأساس الأول لكل معرفة إنسانية، وإذا كانت خادعة فكيف السبيل إلى المعرفة اليقينية؟

3.نظرية المعرفة

ويعتبر المؤرخون أن كتاب لوك "محاولة في الفهم البشري" أول محاولة جدية وعلمية في مجال نظرية المعرفة حيث يسعى في هذا الكتاب، إلى فهم المعرفة البشرية وتحليل الفكر الإنساني وتحديد طبيعة المعرفة برغم أن الفلاسفة السابقين له قد تناولوا نظرية المعرفة بالبحث والدراسة إلا أن بحث لوك في نظرية المعرفة تميز بالجدية والعمق. (اسلام، 1964، صفحة 17).

1.3 مفهوم مبحث المعرفة:

تعتبر نظرية المعرفة من أمهات المسائل الفلسفية التي تدخل ضمن دائرة مدخل عام للفلسفة، لأننا يجب أن نعرف أولا كيف نعرف، وما قيمة ما نعرف، وإلى مدى يتسع نطاق معرفتنا. ويدخل في هذا الباب نقد المعرفة بأنواعها، خصوصا المعرفة العلمية بوصفها من أهم أنواع المعرفة الانسانية. (بدوي، 1980، صفحة 67)

ونظرية المعرفة هي: "البحث في طبيعة المعرفة واصلها وقيمتها ووسائلها وحدودها"، (داود، 2010، صفحة 314). والمقصود بالمعرفة، المعرفة أيا كانت وسواء أكانت عقلية أم نقلية، علمية أم ميتافيزيقية، أعني المعرفة في عمومها. ومثل هذه الطريقة تتضمن دائما الإشارة إلى عنصرين متقابلين: العنصر الأول هو الشخص العارف أو الذات العارفة، والعنصر الثاني الشيء المعروف، إذ لابد أن يتوافر في كل معرفة ذات وموضوع. (الفندي، 1987، صفحة 139)، ويمكن القول أن نظرية المعرفة ولدت عند سقراط التي غايتها اعرف نفسك بنفسك وطريقتها الجدل الذي يولد الحقيقة. وتناول المسألة الأساسية في الفلسفة هو نقطة البداية في مبحث المعرفة.

2.3 إمكانية المعرفة:

يختص هذا المبحث بإمكان المعرفة، وحدودها، ومدى صحتها، وما هو المدى الذي يستطيع الإنسان أن يبلغه بعلمه لو مكنته ظروف التحصيل من ذلك، ويتناول المعرفة في هذا الطريق أتباع اليقين (الدجماطيقيين) (Dogmatisme) الذين يرون أن كل معرفة عقلية أو حسية صادقة تماما. ويندرج تحت هذه الطائفة أصحاب مذهب اليقين من المعروفين بالنقديين (Criticisme) وهم الذين يرون ضرورة تعيين حدود المعرفة الإنسانية قبل الخوض في مسألة ماوراء الحي. وعند ظهور مذهب الشك في المعرفة، شعر مذهب الاعتقاد بضرورة وجوده كمذهب وقيامه كفلسفة في المعرفة يرد إلى معرفة الحقيقة اعتبارها ويدافع عنها. (الفندي، 1987، صفحة 149). كما يتابع نفس الطريق في إمكان المعرفة أتباع مذهب الشك (المتشككون) (Scepticisme) الذين ينكرون المعرفة ويتعارضون في اتجاههم مع أصحاب مذهب اليقين. ولما كان أنصار المذهب علقوا كل أحكامهم لأنهم لم يصلو إلى حكم فقد أصبح اللفظ دالا على عدم المعرفة، ومن ثم فهو مذهب في المعرفة باعتباره منكرا لها (الفندي، 1987، صفحة 143). وهذه هي الفرق، وأتباع المذاهب التي ينطوي عليها الطريق الأول من مبحث المعرفة المتعلق بإمكان قيامها وحدودها ومدى يقينها. (عباس، 1996، الصفحات 35-36)

4.نظرية المعرفة عند لوك: ماذا يمكننا أن نعرف؟

كتب دالمبير في الخطاب حول الموسوعة يقول: "يمكننا القول إن لوك ابتدع الميتافيزيقا، مثلما ابتدع الفيزيقا". وكلمة ميتافيزيقا مستخدمة هنا، كما في غالب الأحيان في القرن الثامن عشر، للإشارة إلى موضوع كتاب جون لوك "محاولة في الفهم البشري"، أي دراسة العقل البشري وطاقاته وحدوده. (رسل، 1988، صفحة 13)، أو لكي يثبت من صلاحيته ومقدرته على اكتساب المعرفة الصحيحة، وإلا كانت أبحاثنا كلها قائمة على اساس متهدم متصدع.

وتتصدر نظرية المعرفة فلسفة لوك التي عالجها في كتابه "محاولة في الفهم الإنساني". على نظرية المعرفة أن توضح أصل وأسس المعرفة الإنسانية وأن تكشف حدود القدرات المعرفية في العقل كما سبق الذكر.

إن كل ما يدركه الذهن في ذاته أو كل ما يعتبر موضوع الإدراك المباشر، وموضوع التفكر أو موضوع العقل، إن ذلك كله هو ما يسميه أفكارا. ولكن من أين تأتي الأفكار؟ إنها تأتي من حصرا من التجربة. لقد رفض لوك رفضا عنيفا أفكار فطرية تكون في الإنسان سابقة علة التجربة (ما يعرف بالأفكار الفطرية كما عند ديكارت، وعند اصحاب المذهب الفطري عموما). (فيدمان، 2003، صفحة 119)، لذلك سلم لوك بعجز العقل البشري وقصوره عن معالجة ما يتجاوز حدوده، ويقول " لا ينبغي أن نعدو حدود ما تستطيعه ملكاتنا". (أمين، 2020، صفحة 110)، وهذا ما سنحاول معرفته في العنصر الآتي- رفض لوك للأفكار الفطرية- بنوع من الشرح والتحليل.

1.4 رفض لوك للأفكار الفطرية وبناء النظرية:

يعالج لوك في الجزء الأول من مؤلفه "مقال في الفهم الإنساني" نظرية الأفكار والمبادئ الفطرية (النظرية والعملية) فيرفضها بشدة مؤكدا على أولوية المعرفة الحسية التجريبية. ومعنى الأفكار الفطرية في تاريخ الفكر الفلسفي: هي تلك التي يولد الإنسان مزودا بها، ولسنا في حاجة إلى تحصيلها. (بدوي ع.، 1984، صفحة 373).

إذا كان هجوم لوك على الأفكار الفطرية يمثل الجانب السلبي لنظريته في المعرفة، وقد بدأ الجانب الإيجابي لبناء نظرية معرفية يقوله "إننا على وعي وشعور بأننا حاصلون في عقولنا على أفكار مثل البياض والصلابة وحلاوة الطعم والحركة والإنسان والفيل ونحو ذلك ونحن". (إبراهيم، 2001، صفحة 261)، وسوف نعرض لرفض لوك وهجومه على مبدأ الأفكار الفطرية الذي عرض تفاصيله بإثارة وإحكام في الكتاب الأول من " المقال في الفهم الإنساني" حيث يتعرض لنقد الأفكار الفطرية، ثم يعرض لحجج دعاتها ويحاول الرد عليهما ودحضها.

ويعرض لوك وهو يرفض الأفكار والمبادئ الفطرية النظرية لحجتين يشمل الرد عليهما موقفه من المعرفة الفطرية: هي حجة الإجماع والثانية حجة استخدام العقل.

أولا- حجة الإجماع

يعض لوك لهذه الحجة ثم يرد عليها، وينقدها، وترمي هذه الحجة إلى أنه ليس هناك شيء مسلم به أكثر من القول بوجود مبادئ معينة – نظرية وعملية يتفق عليها جميع الناس، ويتصورونها مستمرة وأبدية حملتها أرواحهم عندما أتت إلى العالم" لذلك يجمع كثيرون من الناس على المبادئ والأفكار ويتفقوا فيما بينهم عليها. (رايت، 2010، صفحة 157)، لكن لوك يرفض هذه الحجة وينقذها بدعوى أن مسألة إجماع الناس على مبادئ أو أفكار معينة أو اتفاقهم جميعا على بعض منها لا يعني أنها فطرية أو أنهم ولدوا وقد حملتها أرواحهم وأتت بها من عالم إلى عالمنا. (عباس، 1996، صفحة 50).

إن القول بالفكرة المفطورة أو المطبوعة في العقل ثم القول بعد إدراك العقل لها إنها تعني تناقضا صحيحا وخللا في نظرية دعاة الأفكار الفطرية.

ثانيا- حجة استخدام العقل

ترمي هذه الحجة إلى أن الناس تعرف مجموعة من المبادئ والأسس الفطرية وتوافق عليها إذا ما بدأوا في استخدام عقولهم. ويفهم من هذه الحجة وجود الأفكار الفطرية بالقوة في العقول وأنها لا تظهر بالفعل إلا عندما يبدأون في استخدام عقولهم فتخرج من هذه الأفكار من حالة كمون (القوة) إلى حالة الفعل. ويرى لوك أن هذه الحجة تعني أمرين لا ثالث لهما: الأمر الأول: هو أن ظهور الأفكار والمبادئ الفطرية موقوف على استخدام الإنسان لعقله فيدرك هذه المبادئ الأولى.

الأمر الثاني: يعني أن معرفة هذه المبادئ الأولى لن يتم ما لم يستخدم الإنسان عقله. (عباس، 1996، صفحة 54)

لكن لوك يرفض هذين الاحتمالين مبرا رفضه بفرض أن الإنسان لو استطاع أن يكشف بعض القوانين الضرورية الأولية باستخدام عقليه، ثم قام بعد ذلك باستنتاج بعض النظريات الملحقة بهذه القوانين، فإنه لن يكون ثمة فرق بين القوانين والمبادئ الفطرية، وبين استنتاجاتها التالية من حيث أن الأولى والثانية قد نتجت عن طريق اكتشاف العقل وحسن استخدامه لوظيفته وهذا من دواعي الخطأ.

بهذه الكيفية ينفي لوك الأفكار الفطرية، كما ينفي مسألة استخدام العقل لاكتشاف الحقائق ويؤكد على وظيفة العقل تلك العملية الإيجابية – الباطنية التي ترتكز عليها سائر الانطباعات الحسية والمدركة التي يحصلها الإنسان عن طريق الخبرة الحسية ويقصد بها لوك "الحدس أو التأمل الباطني". (عباس، 1996، صفحة 56)

نستنتج أن بحث لوك انصب على "العقل البشري" من حيث هو أداة لاكتساب المعرفة ورأى أنه قبل أن نبحث في المسائل العلمية ينبغي أن نتفحص قوانا الخاصة؛ وهنا دعوة إلى طرح سؤال ابستيمولوجي جديد؟ ولكن كيف؟ ذلك من خلال تبيان الموضوعات التي تستطيع عقولنا تناولها؛ هذا يعني أنه فيه موضوعات تستطيع العقول تناولها وموضوعات لا تستطيع عقولنا تناولها.

وهدف لوك من طرح هذا السؤال الابستيمولوجي هو "الدعوة إلى أن نتفحص قوانا الخاصة الموجودة في العقل البشري من أجل اكتساب المعرفة"؛ والهدف من ذلك هو هدف معرفي في فلسفة لوك يتمثل في تهيئة السبيل لاكتشاف المعرفة فحسب. فلم يكن هدف لوك الرئيسي هو اكتساب الحقائق عن العالم وإنما تهيئة السبيل (طريق) لاكتشاف المعرفة وحسب. لكن السؤال الآخر الذي يطرح نفسه هو كيف يتم ذلك؟

يتم ذلك بإزالة العوائق التي تقف في طريق العقل البشري والمتمثلة في عوائق لغوية والتي تنشأ من استخدام ألفاظ غامضة ومبهمة تؤدي إلى ارتباك العقل وتضليليه. وعوائق منهجية يقوم بالاعتقاد بأن في العقل قواعد فطرية يمكن يستخلص منها المعرفة كلها. (عباس، 1996، الصفحات 61-62)

وهدفه من هذه العوائق او بعبارة أخرى يقترح علينا إزاء هذه العوائق في كتابه "مقالة في الفهم البشري"، ان هناك هدف رئيسي هو "هدف علمي" (نفعي)، يتمثل في تعيين حدود المعرفة البشرية، وهذا لكي تنظم لنا حياتنا وأبحاثنا على نحو يتفق مع ما لدينا من إمكانيات في البحث عن أشياء تستعصي على عقولنا تناولها أو معرفتها. وهكذا يسعى جون لوك إلى تحقيق ثلاثة أهداف:

1- "البحث في أصل المعرفة ويقينيتها وحدودها"، 2- " البحث في أسس المعرفة"، 3- "البحث في درجات المعرفة". وطرح لوك لمسألة المعرفة البشرية والبحث في أصلها واسها ودرجاتها، هو طرح لسؤال ابستيمولوجي جديد، وهذا له دور هام في المعرفة العلمية خاصة والمعرفة بصفة عامة. لكم لماذا هذه الأهداف الثلاثة؟ فيجب لوك قائلا:

أولا لأنه إذا اكتشفنا أصل المعرفة البشرية استطعنا أن نبين بطلان نظرية الأفكار الفطرية في أصل المعرفة. وثانيا حين نبحث في أسس المعرفة اليقينية فإننا نستطيع أن ندرك أن القياس المنطقي ليس الطريقة الوحيدة الصحيحة للوصول إلى اليقين. وثالثا إذا عرفنا حدود ودرجات المعرفة استطعنا أن نتجنب بحث المسائل التي تقع خارج تناول عقولنا. (اسلام، 1964، صفحة 153)

وتمثل هذه الأهداف دعوة إلى إقامة السؤال الابستيمولوجي الذي يقوم على مناقشات التطور الابستيمولوجي لنظرية العقل. عن طريق نقد وتحليل الأسس والمبادئ والنظريات والفروض والمناهج التي تقوم عليها العلوم أو المعارف بصفة عامة.

وهذا ما قام به لوك من خلال:

- نقد نظرية المعرفة عند ديكارت أو نقد وبيان بطلان نظرية الأفكار الفطرية.
- نقد القياس الأرسطي أو المنطقي الذي كان الأساس الوحيد للمعرفة اليقينية وبين بأنه ليس الطريقة الوحيدة للوصول إلى اليقين. (هويدي، 1993، صفحة 61)
- نقد وتحليل وتحديد حدود ودرجات المعرفة وذلك بيان المسائل التي تقع خارج تناول عقولنا.

إذن هذا النقد هو ما يبرر طرح السؤال الابستيمولوجي الجديد عند لوك ودوره في تقدم المعرفة العلمية، وبصورة أدق دوره في التمييز بين القضايا العلمية والقضايا الزائفة. إذن مادام لوك نقد الطريقة التي تؤدي إلى المعرفة اليقينية مع ديكارت ومع أرسطو. فما هو البديل الذي قدمه لوك؟ أو ما هي الطريقة التي يتخذها لوك منهج له؟

2.4 أصل الأفكار وتصنيفها عند لوك:

بعد أن فند لوك مذهب القائلين بالأفكار الفطرية في القسم الأول (الكتاب الأول) من كتابه (محاولة في الفهم البشري)، أخذ في الكتاب الثاني من (القسم الثاني) في عرض رأيه وهو أن التجربة هي مصدر ما لدينا من أفكار. والفكر Idea أي شيء موضوع للتعقل حين نفكر، فمن أين تأتي أفكارنا، مادامت ليست فطرية ومادام العقل في البداية لوحة بيضاء؟ (بدوي ع.، 1984، صفحة 374)

إن الطريقة التي يتخذها لوك منهجا له هي الملاحظة والتجربة. إن الملاحظة تنصب إنما على الأجسام المحسوسة الخارجية، وإما على عمليات العقل الداخلية، التي ندركها ونتأملها، وهي التي تزود أذهانا بكل مواد التفكير. أما التجربة عند لوك هي أصل كل ما في العقل من أفكار، وهي بالتالي مصدر كل معرفتنا. أو هي ارتباط مجموعة من الأفكار في الذهن بشيء واحد أو حامل واحد، بمعنى إذا قيلت هذه الصفات فإنها تدل على هذا الشيء.

إن الفكرة عند لوك هي الركيزة الأساسية في عمليات العقل وبالتالي هي محور نظريته المعرفية. وتدل الأفكار (كلمة فكرة) عند لوك على:

1- المعطيات الحسية والصور (صور الأشاء الموجودة في العالم الخارجي)، 2- المفاهيم المجردة (أي كل ما يمت بصلة بالعقل)، 3- كل الأنواع المحسوسة والمعقولة. (رايت، 2010، صفحة 159).

والأفكار لدى لوك ليست فطرية كما ذكرنا سابقا، وإنما كل أفكارنا مشتقة من الخبرة الحسية (التجربة والملاحظة) ومصدرها هما: الإحساس والتأمل:

1- أفكار الإحساس (الحواس): تأتي من الأجسام الخارجية من الحواس.

2- أفكار التأمل: فتأتي إلى العقل من إدراك العقل ذاته لعملياته الخاصة. (الشنيطي، 1981، صفحة 110)

ثم يقسم لوك الأفكار من حيث تركيبها إلى: الأفكار البسيطة، والأفكار المركبة.

والأفكار البسيطة فهي الأفكار التي تدخل العقل عن طريق الحواس بصورة بسيطة وغير ممتزجة مع غيرها والتي لا يمكن تحليلها إلى أفكار أبسط منها. ويمكن تقسيم الأفكار البسيطة إلى أربعة أنواع هي:

- أفكار تصل إلى العقل بواسطة حاسة واحدة، كأفكار اللون والصوت والرائحة.
- أفكار تصل إلى العقل بواسطة أكثر من حاسة، كأفكار المكان والشكل والحركة.
- أفكار تتكون في العقل بواسطة التأمل الذاتي (الاستبطان) كعمليات الذاكرة والإرادة والانتباه.

- أفكار تتكون بواسطة الإحساس والتأمل الذاتي معا، مثل اللذة أو الألم، القلق والقوة. (إبراهيم، 2001، الصفحات 263-264)، تكون علاقة الذهن بهذه الأفكار البسيطة علاقة سلبية. إذ ستكون مسببة بشكل مباشر من خلال الإثارة التي تنطلق من الموضوع.

أما الأفكار المركبة فهي التي يصنعها العقل من الأفكار البسيطة لما للعقل من قوة على تكرارها ومقارنتها وتوحيدها. وبالتالي فالعقل له دور إيجابي في الأفكار المركبة، لأنه لا توجد قوة تستطيع تركيب الأفكار البسيطة غير قوة العقل. وهو يقوم بتكوين وصنع الأفكار المركبة من الأفكار البسيطة بعمليات ثلاث هي: التركيب combining والمقارنة comparing والتجريد abstraction. (متى، 2001، صفحة 161).

3.4 المعرفة غير مباشرة عند لوك، درجاتها وحدودها:

قلنا سابقا أن نظرية لوك في الأفكار تعتبر جانبا أساسيا من نظريته في المعرفة، ونفهم هذه النظرية بطريقة أكثر وضوحا إذا ذكرنا أن بعض إدراكنا الحسي للأشياء المادية إدراك مباشر ولا يستلزم إلا عنصران هما: العقل والشيء موضوع الإدراك، فالإنسان بحكم استعداده للإدراك بفضل ما به من حواس، إذا واجه شيئا ماديا أمامه فإنه يدركه حسيا بدون واسطة. ولكن لوك يعارض هذا المعنى لتفسير الإدراك الحسي، ويرى أن معرفتنا للأشياء معرفة غير مباشرة تستلزم إلى جانب عنصري العقل والموضوع المادي عنصرا ثالثا هو الفكرة، أي فكرتنا عن الشيء الذي أمامي، فالأفكار هي التي تثبت في عقولنا المعرفة. وتسمى هذه النظرية التي ساقها لنا لوك بالنظرية العقلية للإدراك الحسي أو النظرية التمثيلية Representative للإدراك الحسي. (إبراهيم، 2001، صفحة 265)

مما سبق يتضح أن فلسفة لوك ليست حسية خالصة، كما أنها ليست تمثيلية خالصة أيضا، فليست جميع الأفكار الموجودة في العقل صورا دقيقة لما هو موجود في الواقع، كما أن العقل البشري به مجموعة من القدرات أو القوى الإيجابية تمكنه من أن يفهم معنى الانطباعات الحسية ويكون منها أفكارا بسيطة بجانب وظيفة العقل السلبية القاصرة على تلقي المعطيات الحسية الخارجية، فضلا عن ذلك فإن لوك يرى أن أهم قدرتين عقليتين عند الانسان هما الإدراك والإرادة، ويمثل الادراك الحسي الوجه السلبي للعقل، بينما تمثل الإرادة الجانب الإيجابي له، لأنها تتبع رغبة العقل في تكوين الأفكار وإصدار الأحكام. (اسلام، 1964، الصفحات 72-73-74-75)

يصل لوك في الكتاب الرابع والأخير من كتابه "مقال في الفهم البشري" إلى نتائجه النهائية التي تخص طبيعة المعرفة البشرية ومداها.

ويعرف لوك المعرفة بأنها إدراك اتفاق أفكارنا واختلافها. وهذا الاتفاق أو الاختلاف هو على أربعة أنواع:

النوع الأول هو الهوية أو التباين؛ ونعنى به أن الفعل الأصلي للعقل في إدراك أفكاره الخاصة بالإحساس والتأمل الذاتي يميزها بعضها عن بعض؛ فلا شيء أكثر وضوحا من قولنا "اللون الأبيض" و "الدائرة" ليسا هما "اللون الأحمر" و"المربع". والنوع الثاني هو التمييز المباشر للعلاقات بين الأفكار؛ وذلك أمر واضح بصفة خاصة في الرياضيات. أما النوع الثالث فهو ملاحظة معية الأفكار أو عدم معينتها في نفس الموضوع، وبصفة خاصة في الجواهر. أما النوع الرابع فهو معرفة الوجود الحقيقي معرفة ما يقابل الفكرة في العالم الخارجي؛ ويذكر لوك معرفتنا بوجود الله كمثال. وكل معرفة تكون لدينا أو يمكن أن نكتسبها، تندرج داخل هذه الأنواع الأربعة من الاتفاق أو الاختلاف، وقد تكون المعرفة فعلية أي وجهة النظر الحالية التي تكون لدى العقل عن أفكاره، أو قد تكون بحكم العادة كما هي الحال في الحقائق المستقرة في الذاكرة.

وهناك أربع درجات للمعرفة: وهي المعرفة الحدسية، والمعرفة البرهانية، والمعرفة الحسية، ومعرفة الاعتقاد عن الإيمان، وسوف نحاول إلقاء الضوء على كل معرفة من هذه المعارف على حدة:

- المعرفة الحدسية: **Intuitlon**

يطلق لوك على هذا النوع من المعرفة إسم المعرفة البديهية أي التي لا يحتاج الإنسان إلى البرهنة عليها كما لا يستطيع القيام بذلك. يقول عنها في المقال "إنه الحدس الذي تعتمد عليه جميع معارفنا المؤكدة والواضحة". (Locke, 1690, p. 177)

وهي المعرفة التي يحصل عليها العقل نتيجة إدراكه ما بين الأفكار من توافق أو عدم توافق مباشرة، مما يجعلنا نرى مباشرة أن هناك شيئا صادقا عنهما بحيث لا يتطرق إليه الشك، وبدون تدخل أي فكرة.

ونلاحظ هنا أن لوك يستخدم "الحدس" بمعنى يختلف عن المعنى الذي ذهب إليه ديكارت. فالحدس لديه هو ما في العقل من قوة على إدراك العلاقة الكائنة بين الأفكار التي نحصل عليها بواسطة الإحساس أو التأمل. فمع أن الإحساس قوة عقلية فإن موضوعه غير عقلي بل حسي. وبناء عليه فالحدس لدى لوك لا يتعارض مع الفلسفة التجريبية. (Locke, 1690, p. 228)

- المعرفة البرهانية: Demonstration

هي ذلك النوع من المعرفة التي يجب البرهنة على يقينها والتأكد من مدى سلامتها وصحتها بعد إقامة البرهان عليها (Locke, 1690, pp. 180-181). فليس الحدس هو طريق الإنسان الوحيد للمعرفة. أو هي المعرفة التي يحصل عليها العقل حين يدرك ما بين فكرتين من توافق أو عدم توافق ولكن بصورة مباشرة بل عن طريق وساطة أفكار أخرى. (إبراهيم، 2001، صفحة 279)

- المعرفة الحسية:

يعلمنا هذا النوع من المعرفة بوجود العالم الخارجي وبالتالي فهو يعتمد على الإدراك الحسي. ويرى لوك أن المعرفة الحسية تقل عن درجة البداهة واليقين والبرهان ولكنها في نفس الوقت أكثر يقينا من المعرفة الظنية والاحتمالية. فإن مثل هذه المعرفة تساعدنا على إثبات وجود للعالم الخارجي ودليله على ذلك قدرة العقل على التمييز بين الحلم واليقظة. والمعرفة الحسية هي النوع الثالث الذي يذكره لوك من درجات المعرفة فتعني العلم والإحساس بوجود العالم الخارجي. (عباس، 1996، صفحة 95)

- معرفة الاعتقاد الناشئ عن الإيمان:

هذه المعرفة الاعتقادية تأتي إلى الإنسان عن طريق الإيمان بالمعتقدات الدينية. ولا يمكن البرهنة على هذا النوع من المعرفة لسموه عن مستوى مداركنا وحواسنا، بيد أنا نتمسك به بشدة لأنه يعد سرا من أسرار الإيمان. (عباس، 1996، صفحة 95)

حدد جون لوك **حدودا للمعرفة الإنسانية** لا يستطيع الإنسان أن يتعداها:

- لا يمكن أن تمتد معرفتنا أبعد من أفكارنا

- لا يمكن أن تتجاوز معرفتنا ما نستطيع إدراكه من توافق أو عدم توافق بين الأفكار بواسطة الحدس أو الاستدلال أو الإحساس. (إبراهيم، 2001، صفحة 280)

- لا يمكن إدراك التشابه والاختلاف بين جميع الأفكار الموجودة في العقل البشري عن طريق الحدس فقط بل لا يمكن معرفة جميع الأفكار عن طريق المعرفة البرهانية. (اسلام، 1964، صفحة 153)

- لا نستطيع أن نحصل على معرفة حدسية تشمل كل أفكارنا، وكل ما نرغب في معرفته عنها، ذلك لأننا لا نستطيع أن نتقصى وندرك كل العلاقات الكائنة بين الواحدة منها والأخرى بواسطة وضعها جنبا إلى جنب أو مقارنتها.

- يلزم ما تقدم أن المعرفة البرهانية أو العقلية لا يمكن أن نتناول كل أفكارنا، لأننا لا نستطيع دائما أن نجد فكرة وسيطة تربط فكرتين في برهان، وفي هذه الحالة لا نحصل على المعرفة ولا على البرهان. (اسلام، 1964، صفحة 153)

وتوصل لوك إلى قصور عقل الإنسان عن معرفة أي شيء يدور حول حقائق العالم المادي واللامادي، بل لا يستطيع أن يعرف شيء عن أفكاره والعلاقات التي تقوم بينها، ومن ثم يمهد لوك لبحث حدود المعرفة الإنسانية عند بركلي وهيوم وكانط. (إبراهيم، 2001، صفحة 281)

5. خاتمة:

يمكننا أن نستنتج أن الفلسفة عند لوك تهدف بطريقة منهجية عن أصول المعرفة وتبديد الأباطيل التي تعترض الطريق إلى المعرفة السليمة؛ هذا ما استدعى طرح السؤال الابستيمولوجي عند لوك؛ وبسؤاله هذا نقد نزعتين كانتا شائعتين في عصره، هما: نزعة الاعتقاد بأن المعرفة تعتمد على مبادئ فطرية سابقة على التجربة، ونزعة اعتبار القياس المنهج الصحيح للمعرفة.

وقد أدى هذا السؤال الابستيمولوجي الجديد إلى عدة نتائج مهمة في تاريخ الفكر الفلسفي التجريبي أهمها:

- أن لوك أول من وضع مشكلة المعرفة موضع البحث والتعمق.
- إنه وجه أنظار الناس إلى قضية المعرفة، وبين أوجه النقص في طرائق التفكير القديمة.
- إنه قدم تصورات مهمة حول المفاهيم الفلسفية وطرائق تحليلها.
- إنه طبق الأسلوب التجريبي للبحث في موضوع نظرية المعرفة.
- استعان بالمنهج الاستقرائي في البحث عن أصل المعرفة الإنسانية.

هذا هو لوك الذي كان أول فيلسوف في العصر الحديث وجه الفكر إلى مشكلة المعرفة: من أين تأتي المعرفة، وكيف يحصلها العقل؟ لقد مهد السبيل إلى الفلاسفة من بعده في تطوير الفلسفة التجريبية التي تعتبر أساس العلوم الحديثة.

6. قائمة المراجع:

1- المصادر

أ- باللغة الإنجليزية

dfgf.) fgf). *gdf*. fdg: dfg.

1- Locke, J. (1690).An essay concerning human understanding,The pennsylvania State university, pennsylvania,Usa.

ب- باللغة العربية

1- إبراهيم، زكريا، (1968)، دراسات في الفلسفة المعاصرة، دار مصر للطباعة، (د.ط)، مصر.

2- إبراهيم، عبد الله ، (1997)، المركزية الغربية اشكالية التكون والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، لبنان.

3- اسلام، عزمي، (1964)، جون لوك ، دار المعارف، (د.ط)، مصر.

4- بدوي، عبد الرحمان، (1980)، مدخل جديد إلى الفلسفة، وكالة المطبوعات، ط1، الكويت.

5- بدوي، عبد الرحمان، (1984)، الموسوعة الفلسفية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج2، ط1، بيروت، لبنان.

6- برهييه، اميل، (1993)، تاريخ الفلسفة القرن الثامن عشر، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط2، بيروت، لبنان.

7- بيتز كونزمان، وفرانز بيتر بوركارد، وفرانز فيدمان، (2003)، أطلس الفلسفة، تر: جورج كتورة، المكتبة الشرقية، ط11، لبنان.

8- رايت، وليم كلي، (2010)، تاريخ الفلسفة الحديثة، تر: محمود سيد أحمد، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان.

9- رسل، برتراند، (1988)، تاريخ الفلسفة الغربية، الفلسفة الحديثة، تر: محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، مصر.

10- زكي نجيب محمود، وأحمد أمين، (2020)، قصة الفلسفة الحديثة، (د.ط)، مؤسسة هنداوي، مصر.

11- الشنيطي، محمد فتحي، (1981)، المعرفة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ط5، القاهرة.

12- عبد المنعم عباس، رواية، (1996)، جون لوك إمام الفلسفة التجريبية، دار النهضة العربة للطباعة والنشر، (د.ط). بيروت، لبنان.

13- الفندي، محمد ثابت، (1987)، مع الفيلسوف، دار المعرفة الجامعية، (د.ط)، الإسكندرية، مصر.

14-كرم، يوسف، (2012)، تاريخ الفلسفة الحديثة، كلمات عربية للترجمة والنشر، (د.ط)، القاهرة، مصر.

15- متى، كريم، (2001)، الفلسفة الحديثة عرض نقدي، دار الكتاب الجديد المتحدة، (د.ط)، بيروت،لبنان.

16- محمد محمد، أحمد ناظم داود، (2010)، نظرية المعرفة عند لوك . مجلة آداب الفراهيدي، جامعة ركوك، العدد 05، ص 313.

17- محمود، زكي نجيب، (1982)، حياة الفكر في العالم الجديد، مؤسسة هنداوي، ط1، مصر.

18- مصطفى إبراهيم، إبراهيم، (2001)، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، (د.ط)، الإسكندرية، مصر.

19- هويدي، يحيى، (1993)، قصة الفلسفة الغربية، القاهرة،دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، مصر.